
9
قصص
المبشرون
بالجنة
سلوى العناني
رجل من
أهل الجنة
دار اللطائف

رجل من أهل الجنة

(سعد بنُ أبى وقاصٍ)

بسم الله الرحمن والرحيم

{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

[لقمان : 15]

لهذه الآيةِ الكريمة حكايةٌ .. فقد نزلت فى موقف إنسانى نادر .. قد يكون الوحيدَ فى تاريخ البشريةِ ...

فما هى هذه الحكايةُ ؟ .. ومن هو بطلُها ؟

بطلُ الحكايةِ صحابىٌّ جليلٌ من صحابةِ الرسولِ عليه السلام ـ هو (سعد بن مالك الزُّهرى) والمعروف باسم (سعد ابن أبى وقاص) الذى تحدث عن نفسه فقال :

"أتى علىَّ يومٌ ، وإنى لَثُلثُ الإسلام" ..

وهذا يعنى أنه كان ثالثَ أول ثلاثة رجال دخلوا الإسلام

والأغنياءُ وصفوةُ قريشٍ .. وينضم إلى قافلَـةِ الفقـراء التـى يقودها الفقيرُ اليتيمُ (محمدُ بنُ عبد الله) ؟؟؟

وتكون صدمةُ أمه فيه كبيرةً .. فهذا فتاها (سعد) ينتظـره مجدٌ وثراءٌ ، فإذا به يهجر هذا كلَّه ويعتنق دينًا جديدًا ..

وتمضى أيامُ الحوار بين سعد وأمِّه .. ومعها ليالى التـهديد والوعيد ..

لكن الإيمانَ القوىَّ لم ينهزمْ أمامَ الوعـدِ .. ولا الوعيـد ، ولم تجد الأم طريقًـا واحـدًا تـهزم بـه إصـرار ابنـها .. فقـد أعلنت صومها عن الطعام والشراب حتى يرجع ابنُها عمـا هو فيه ، ويرتد إلى دين آبائه وأجداده ..

واسـتمرت الأم فـى إصرارهـا حتـى تدهـورت صحتُـها وأشرفتْ على الموت ..

فلجتمع أهلُ (سعد) وذهبوا إليه يسألونه أن يُلقى علـى أمه نظرة الوداعِ وقد أيقنوا أن صورةَ الأم على هــذه الحـال ستعيد للفتـى (صوابـه) فـيرتد عـن دينـه لينقـذ أمـــه ..

وذهب سعدٌ ..

ورغم قسوة الموقف .. فإن صوت الإيمان القوى كان يهتف فى عقله وقلبه فيعطيه القوة على تحمل ما هو فيه ..

اقترب سعدٌ من أمه .. أمسك بكفها الهزيلةِ الباردةِ .. ارتعش صوتهُ قليلا ، فقد تحركت مشاعره تجاهها .. ثم قل :

"تعلمين والله يا أمَّه .. لو كانت لك مائةُ نَفْسٍ ، فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشىء .

فكُلى ـ إن شئتِ ـ أو لا تأكلى" ..

وأمامَ هذا الإصرارِ القوىّ عدلت الأمُّ عن قرارها وأقبلت على طعامها وشرابها ، فقد اكتشفت أن (إضرابها عن الطعام) لن يثنى ولدها (سعد) عن قراره .

لقد تمكن الإيمان منه وأصبح عنده أغلى من كل ما فى الحياة ، وتحيةً لهذا الموقف نزل الوحىُ الكريمُ يقول :

{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا} ..

جلس النبىُّ يوما مع أصحابه .. فإذا به يتطلــع إلى الأفـق وكأنه يسمع همسا .. ثم نظر إلى أصحابه وقال لهم :

"يطلع عليكم الآن رجلٌ هو من أهلِ الجنة" .

ويلتفت الصحابةُ فى كل اتجاه .. وما هى إلا دقائق حتــى أهلّ (سعدُ بن أبى وقاص) عليــهم .. فعرفـوا أنــه (مُبَشَّـرٌ بالجنة بإذن الله) .

يُرْوَى عن رسول الله عليه السلام ، أنه كان إذا أتى سعدٌ إلى مجلس وهو بين أصحابه داعب (سعدًا) قائلا ..

(هذا خالى .. فليرنى امرؤ خاله) .

نعم .. كان سعدُ بنُ أبى وقاص فى مكانــة الخـالِ للنبـى الكريمِ فجده أهيب بن مناف هو عــمُّ السـيدَةِ آمنـة بنـت وهب أم رسول الله .

كان سعدُ بن أبى وقاص هــو أولَ مـن رمـى سـهما فـى سبيلِ الله ، فقد خرج على رأس ســريَةٍ مـن السـرايا التـى بعث بها النبىُّ بعـد الهجـرَةِ إلى المدينـةِ للثأرِ مـن قريـش

باعتراض قوافلها .. وعندما التقى المسلمون بإحدى هذه القوافل .. رمى سعدٌ سهما من قوسه (فكان أولَ من رمى في الإسلام) ..

أما أنه الوحيدُ الذى افتداه الرسول بأبويه ، فقد كان فى غزوة (أُحد) وقد انقلب ميزان الحرب على المسلمين بعد أن كانوا قد انتصروا ، لكن مخالفة بعضهم لأوامر النبى جعلت (قريشًا) تنتهز الفرصة فتعود لتثأر لهزيمتها .. وساد الهرج فى صفوف المسلمين ، وأشاع البعض أن النبى قد قُتل ..

والتفَّت كوكبةٌ من خيرة الصحابة حول الرسول تدافع عنه وعن دينها منهم (سعد بن أبى وقاص) يقف إلى جانب النبى يرمى بالنبل وكان الرسول يناوله ويقول : "ارم .. فداك أبي وأمي" ..

ولم تكن هذه فقط هى بطولات (ابن أبى وقاص) الحربية .. فقد عرف عنه الشجاعةُ والقدرةُ القتاليةُ الفذّةُ

طيلة حياته ، يدفعه إلى ذلك يقينه الصلب ، وإخلاصهُ العميقُ وإيمانهُ الصادقُ بدينهِ وبرسولهِ ..

كان بطلا فى (بدر) .. وفى (أُحد) .. وفى كل الغزوات الأخرى ، فعرف الصحابةُ عنه هذه القدرةَ القتاليةَ الفريدةَ ..

كان يوما حاسما فى تاريخ الإسلام .. هذا اليوم الذى اجتمع فيه رأى أصحاب (الشورى) على ألا يقود الخليفةُ (عمر بن الخطاب) الحملة الكبرى ضد (الفرس) وكان الخليفةُ قد أخذ قرارَه هذا بعد أن شعر بخطورةِ الهجماتِ المسلحةِ المتكررةِ من جانب الفرس على المسلمين ، كما تضاعف عنده إحساسُ الخطرِ بعد أن تراجع بعضُ أهلِ العراق عن عهودهم ومواثيقهم مع خليفة المسلمين فى المدينةِ ..

ونزل الخليفةُ عمرُ بنُ الخطاب عن قراره أمام إصرارِ (الجماعةِ) ثم سألهم عمن يختارون لهذه المهمةِ .. وساد

صمتٌ طويلٌ .. المسئوليةُ كبيرةٌ ولابد أن يكون الاختيار محسوبًا ..

وجاء صوتُ الصحابى (عبدِ الرحمن بنِ عوف) ليقطع هذا الصمتَ ويطرحَ اسم القائد الذى اختاره ..

"الأسد فى براثنه" ..

واختلطت الهمهمات تحمل سؤالاً واحدًا ..

من هو المقصودُ بهذا الاسم "الأسد فى براثنه" ..

قال عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ (سعد بن مالك الزهرى) .

وصاح الجميعُ فى صوت واحدٍ .. نعم هو لها . (سعد بن أبى وقاص) .

إن جيشَ المسلمين لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل مسلحين بسلاح بسيط .. مجرد سيوف ورماح ..

بينما كان جيشُ الفرس يزيد عدده على مائة ألف من المقاتلين المدربين والمزودين بأسلحة ومعدات ليس للعرب معرفةٌ بها ، كان على رأسهم القائد المشهود له (رستم) .

فمن هو القائد العربى المسلم الـذى يتحمـل مسئولية هذه المواجهةِ ؟؟ ..

إنه "الأسد فى براثنه" .. إنه (سعد بن أبـى وقـاص) .. الذى خرج علـى رأس جيـش المسـلمين متوجـها إلى لقـاء الفرس عند (القادسيةِ) ..

فى كل يوم كان رسول (خليفة رسول الله) يصل إلى سعد حاملا النصحَ والتوجيهَ ..

ـ "يا سعد بن وهيب .. لا يغرنك من الله أن قيل : خـال رسول الله وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسـبٌ إلا بطاعته .. والناسُ شريفُهم ووضيعُهم فى ذات الله سـواء .. الله ربهم وهم عباده .. يتفاضلون بالعافيةِ ويدركون ما عنـد الله بالطاعةِ .. الأمر الذى رأيت رسول الله عليه السلامُ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه ، فالزمه ، فإنه الأمرُ ..

اكتب إلىَّ بجميع أحوالكم .. وكيف تنزلون .. وأين يكون عدوكم منكم .. واجعلنى كأنى أنظر إليكم" ..

ويرسل سعد إلى الخليفة (عمر) أن (رستم) قائد الفرسِ قد جمع خيوله تتقدمها الفيلةُ، ووقف قبالةَ جيشِ المسلمين. فيرد (عمر): (لا يكربنك ما تسمع منهم، ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه رجالا من أهل النظر والرأى والجَلَد يدعونه إلى الله ..).

ويذهب وفدُ المسلمين إلى معسكر الفرس ويلتقى (برستم) ثم يعود بإجابة قائد الفرس .. إنها الحرب. يا الله .. إنها اللحظةُ التى يتمناها (الأسدُ فى براثنه) أن ينطلق بسيفه (بعون من الله) ليقضى على (عبادة النارِ) ..

إنها فرصته كى يعتلى صهوةَ جوادِه ويصولَ ويجولَ وسط هؤلاء المتكبرين، ويعلى كلمةَ الحقِّ وينصرَ شعارَ (الله أكبر) ..

لكن .. لكنه المرض اللعين يداهم الفارسَ فى يومٍ كان يراه يوم عُرسه فيعوق نشاطَه ويحد من حركته ..

لابد أنها حكمةٌ إلهية ألا يشارك (سعد بن أبى وقاص)

فى أهم المواقعِ الحربيةِ فى التاريخِ الإسلامى رغم أنه كان قائدَ الجيش ..

وتدور رحى الحرب ، وترجح كفةُ المسلمين رغم أن كفةَ العدو كانت هى الأرجح عددًا وعدةً .. لكن الإيمان الراسخ والاستهانَةَ بالروح والنفس جعل فى ساعد كل مسلم كتيبةَ محاربين ..

ويُقتل قائدُ الفرس (رستم) الذى كان أسطورة قومِهِ .. ويمضى قرابَةَ عام على نصر المسلمين فى موقعة القادسية .. والفرس يحاولون مرَّة أخرى جمع فلولِهم وتنظيم صفوفِهم علهم يقدرون على مواجهة هذا الطوفانِ الهادر القادم من الجزيرةِ العربيةِ .. فيتحصنون بعاصمتهم (نهاوند) ..

ويقرر (سعد) استكمالَ رسالته وهدفِهِ الأول وهو (إطفاءُ النارِ المعبودةِ) وإعلاءُ كلمةِ الله الحق ..

ويقف نهرُ (دجلة) مانعًا مائيًّا ضخمًا لم يعرف العربُ التعامل معه من قبل ..

هنا تتجلى العبقرية العسكريةُ للقائد (سعد بن أبى وقاص) فقد اختار موقعا ليس عميقا .. ثم جهز كتيبتين على رأس كل منهما قائد شجاع وكلفهما بعبور النهر فى البدايةِ لتأمين عبورِ باقى قوات الجيشِ ..

ثم كان العبورُ الكبيرُ ..

انطلقت صيحةُ (ابن أبى وقاص) .. حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقفز بجواده إلى مياه (دجلة) فتبعه جنوده يهللون ويكبرون حتى اكتمل عبورهم ووصلوا إلى (نهاوند) ..

كان أمرا حتميا أن يتولى سعد بنُ أبى وقاص إمارة العراق .. وهناك أدار دفة التعمير وأرسى قواعد الدينِ الحنيف مؤسسا مجتمعًا إسلاميًا كامل الأركان اجتماعيا ، واقتصاديا ، وعسكريا..

عاد سعد بن أبى وقاص إلى المدينةِ ، وفضل البقاءَ هناك إلى جانب الخليفة عمر .. وغيره من صحابةِ رسول الله يعطى المشورة إذا طُلب منه ذلك فى أمور السياسة والحكمِ ..

إلا أن (سعدا) لم يشارك فيما ظهر على سطح الحياة الإسلاميةِ من خلافاتٍ ونزاعات وصل بعضها إلى حدِّ القتال (كما فى الفتنة الكبرى بين الإمامِ (على) ومعاوية ابن أبى سفيان) ..

ولما حضره الموتُ وكان جاوز الثمانين استقبله بروح الرجل القوى الإيمان ، الشديد التقوى الواثق من رحمة ربه ، وكيف لا وهو صاحب بشارة رسول الله بالجنة ؟...

ولما شعر بدنو أجله طلب من أهله أن يأتوا إليه بثوب قديم بالٍ كان يحفظه فى مكان آمن وأمر أن يكفنوه به .. وقال :

(لقد لقيت المشركين فيه يوم (بدر) .. ولقد ادخرته لهذا اليوم) ..

ها هو ذا الرجل يختار ثوب عُرسه الذى يريد أن يُزفَّ به إلى جنات النعيم ..

ثوب الجهاد فى سبيل الله .. ثوب الشرف الذى مزقته

الرماحُ .. وهتكته السيوفُ ..

هذا هو الثوب الذى اختاره (سعدٌ) كى يلقَى فيـه ربـه .. شهادة من الدنيا تزكيه فى الآخرة .. وهو الغنــى عـن هـذه الشهادة ..

فهو القائل : (إن الله لا يعذبنــى أبـدًا .. إنـى مـن أهـل الجنة) .

بكى المسلمون (سعدًا) كما لم يبكوا أحــدًا منـذ ودَّعـوا رسولَ الله ..

فقد كان سعدٌ هو آخر من بقى من المهاجرين .. وبوفاتــه طوى التاريخُ صفحةً مضيئةً من الحياةِ ..

صفحـةً حروفـها تقـوى الله ، وكلماتـها الإيمـان الحــق ، وسطورها الجهاد فى سبيل الله .